معركة الكرامة

منير شفيق

في مثل هذا الشهر (٢١ آذار ــ مارس) من عام ١٩٦٨ ، وقعت معركة الكرامة التي حظيت بشهرة عالمية وتاريخية واصبحت تذكر الى جانب المعارك العسكرية الكبرى ، التي شكلت نقطة تحول فاصلة في تاريخ المقاومة .

على ان اي ناقد عسكري لا يستطيع الا ان يقف مشدوها لا يملك ان يجد تفسيرا لكيف نالت معركة الكرامة تلك الشهرة العالمية والتاريخية الى حد وضعها جنبا لجنب مع كبريات المعارك العسكرية ، فمعركة الكرامة تختلف عن تلك المعارك من زاوية كون تلك المعارك شكلت نصرا عسكريا على العدو كان نقطة تحول فاصلة في مجرى الحرب ككل ، بمعنى انتقال المنتصر الى مرحلة السيطرة الكاملة ، وانتقال المهزوم الى مرحلة الاستسلام . ان تعريف النصر العسكري في المعركة ، سواء عند القادة الاقدمين ، او عند نابليون وكلاوزفتز ، او عند القادة المعاصرين ، هو ابادة الجسم الرئيسي من القوات المعادية ، او فرض الاستسلام عليها وتجريدها من السلاح ، او في حالة اخرى تمزيق ذلك الجسم الرئيسي واجباره على التبعثر والفرار مع فقدان تماسكه وانضباطه، وتحوله الى طريدة للقوات المنتصرة التي تنتقل بعد ذلك الى مطاردته من اجل الاجهاز عليه ، وعدم السماح له باعادة تنظيم صفوفه ، وفي النهاية فرض الاستسلام عليه . وقد حدث هذا الشكل او ذاك في المعارك الكبرى في التاريخ . ولم يحدث شيء من ذلك في معركة الكرامة ، فقوات العدو اقتحمت الكرامة ، وعملت فيها ابادة وتدميرا ، وانسحبت منها بجسمها الرئيسي حاملة معها نسبة من الخسائر في الارواح والاليات يمكن اعتبارها في المعارك خسائر عادية غير ملفتة للنظر . (ولكن تلك الخسائر اعتبرت كبيرة وهامة ، واعتبر انزالها بالعدو نصرا بسبب ظرف خاص تميز بما جرت عليه عادة العدو ، قبل ذلك ، من شن هجمات عسكرية وعمليات اقتحام على جبهة الاردن ، دون ان يصاب بخسائر تذكر) .

ولكن على الرغم من هذا التعريف للنصر العسكري في المعركة ، ومن ثم ، بالرغم من الاختلاف بين المقومات التي اتسمت بها المعارك الكبرى من جهة وبين معركة الكرامة من جهة ثانية ، فقد اعتبرت معركة الكرامة واحدة من تلك المعارك التاريخية دون ان تكون قد حققت نصرا عسكريا وفقا لما هو متعارف عليه في تعريف النصر العسكري في المعركة ، فكيف كان ذلك ؟ الجواب هو ان معركة الكرامة سجلت في الظروف السياسية والموضوعية والذاتية المعطاة حين وقوعها ، نقطة تحول ايجابية هامة للغاية في مجرى تطور الثورة الفلسطينية ، وفي المزاج الجماهيري العام ، بغض النظر عن تعريف النصر في منظور النقد العسكري البحت ، وبغض النظر عن النتائج العسكرية التي حققها العدو في حملته ، او فداحة الخسائر التي الت به . ويمكن تلخيص تلك النتائج : (١) خروج الثورة الفلسطينية منتصرة بأعين الجماهير الفلسطينية والعربية ، بل ان قوى الثورة والتحرر في العالم رات في معركة الكرامة نصرا للثورة الفلسطينية ، ورات فيها